التعبير المثالي للكرامة

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

"الكرامة" أول مفردة سمعتها من مسؤول عراقي سابق كان قد حصل على اللجوء السياسي في بريطانيا، وهو يعبر لي عن سعادته بقبوله مع أسرته لاجئا عراقيا قبل أكثر من ربع قرن.

قال دعك ممن يتحدثون عن المكاسب الشخصية الأنانية التي سيحصلون عليها من منافع اللجوء، أهم مكسب بالنسبة إليّ أن أكون مع أسرتي هنا، هو كرامتي المستعادة والتي ليس بمقدور أي كائن في هذا البلد أن يمسها، كما يحصل في بلداننا العربية.

هذا الرجل لم يفرط بـ"الكرامة" التي استعادها قبل أكثر من عقدين في بلاد اللجوء، مع أنه عاد إلى بلده الأصلي بعد أن تغيرت الأوضاع ويتقلد اليوم منصبا حكوميا رفيعا. بقي متشبثا بتلك الكرامة التي حصل عليها في بلاد جلالة الملكة إليزابيث الثانية والتي أبقى أسرته في كنفها، بينما مثلت عودته لبلاده الأصلية مجرد فرصة عمل سواء طالت أو قصرت!

يبدو لي هنا أن تعبير "الكرامة" مثالي عند التحدث عن مشكلة الهجرة التي بات الأوروبيون يقلقون منها أكثر من أي وقت مضى مع موجة اللاجئين على الحدود البولندية. هناك ما يمكن أن نسميه بـ"الرعب" الأوروبي من جاذبية بلدان الاتحاد للمهاجرين من دول كانت تعيش السلم أم واقعة تحت وطأة الحرب.

ويمكن فهم تلك الجاذبية وفق دلالة "الكرامة" أيضا تلك المفردة الإنسانية المثيرة للعواطف في تاريخ البشرية. لأنه لم يعد بمقدور هؤلاء الأشخاص المحافظة في أقل اعتبار على كرامتهم في الأوطان التي ولدوا فيها، صاروا يبحثون عن تلك الكرامة المهدورة في بلدان الاغتراب الأوروبي.

صحيح جدا، أن القادم إلى تلك البلدان لن يعيش في كنف نعيم تفترضه القصص والأحاديث المسبقة، وعليه أن يشقى ويحصل على فرصة عمل صارت نادرة لسكان البلد الأصليين. وصحيح أيضا أنه سيعيش أزمة نفسية قاتلة بسبب الاغتراب الذاتي وصعوبة الانصهار في مجتمع مختلف كليا عن طريقة تفكيره، وصحيح أنه سيشعر بالخجل الدائم لأنه لا يستطيع إيصال أفكاره بلغة سليمة تجعل أبناء البلد الأصليين يفهمون كيف يفكر هذا القادم إليهم مع أنه على درجة عالية من التعليم. كل هذا وغيره الكثير صحيح للغاية في حياة المهاجرين إلى بلدان الاتحاد الأوروبي، لكن مئات الآلاف منهم سيتحملون كل هذا الأسى والخيبة الذاتية، لأن كرامتهم ستبقى مصانة في النهاية عندما يمارسون دور المواطن السوي.

لم يعد بمقدور المهاجرين المحافظة في أقل اعتبار على كرامتهم في الأوطان التي ولدوا فيها فصاروا يبحثون عن تلك الكرامة المهدورة في بلدان الاغتراب الأوروبي

وصحيح أيضا أن نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين، يلفقون قصصا غير حقيقية من أجل القبول بهم كلاجئين، وأنهم مجرد مجموعة من الأفاقين والباحثين عن مصالح مادية، ولا توجد لديهم أي مشكلة في بلدانهم الأصلية. وهؤلاء يمكن اعتبارهم بلا كرامة أصلا، لذلك لا يهاجرون بحثا عنها.

لا يمكن اختصار مفهوم استلاب كرامة الإنسان بالقمع السياسي وحده، بل إن كرامة المواطن العربي تهان يوميا لأنه يعجز عن الحصول على قوت يومه. ربة البيت تهان وهي تنتظر في طابور طويل لساعات من أجل الحصول على أسطوانة غاز تطهو عليها الطعام لأسرتها.

رب العائلة القادم المنهك من يوم عمل طويل ينتظر لساعات مضاعفة كي يجد له مكانا في مركبة نقل عمومي تنقله إلى المنزل.

الكلام السياسي الذي تتناوله وسائل الإعلام الغربية بأن الحاكم القوي لبيلاروسيا ألكسندر لوكاشينكو، استدرج الأشخاص اليائسين من الشرق الأوسط وأفريقيا بوعد الدخول السهل إلى الاتحاد الأوروبي عبر الحدود البيلاروسية – البولندية، لا يعبر عن الحقيقة الكامنة في اليأس الذي يشعرون به. فسبق استدراج لوكاشينكو، أن غامر الملايين من اليائسين هربا من بلادهم، مع أن بعضهم كان يدرك أن نسبة غرقه مع صغاره تفوق نجاته، ومع ذلك ولج هذا الكابوس ولم ينتظر استدراج الحكومة البيلاروسية.

بطبيعة الحال، هذا الكلام لا يعني أنه تحريض على تشجيع ترك البلدان العربية في رحلات غير مأمونة العواقب بحثا عن الكرامة المهدورة، بقدر ما يدين الحكومات العربية الفاسدة والفاشلة في تأمين العيش الكريم لشعوبها.

كذلك كشفت أزمة المهاجرين أن المزاج السائد في أوروبا يتسم بالذعر. والسياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي محاصرة بالفجوة المتزايدة بين خطاب بروكسل النبيل والسياسة الواقعية التي تمارسها الدول الأعضاء. عندما يدفع المسؤولون ضريبة لغة السمو الأخلاقي والإنساني المجردة من أي دعم واقعي، بينما بقيت حشود اليائسين بين حصار الجنود البولنديين والبيلاروسيين.

سارعت بروكسل إلى الوقوف خلف بولندا في مواجهتها مع النظام البيلاروسي لأنها خائفة من العودة إلى الانقسامات التي اندلعت في أزمة اللاجئين عام 2015. ومع ذلك، فإن الاتحاد الأوروبي بعيد كل البعد عن مفهوم الاتحاد. فتحت الحكومة البولندية حربا على جبهتين، معركة لوقف المهاجرين على الحدود، لكنها تقاتل أيضا لإثبات أن وارسو ليست بحاجة إلى الاتحاد الأوروبي من أجل الدفاع عن حدودها.

ثمة مفارقة جسدتها القوة الناعمة لقادة الاتحاد الأوروبي، تكمن في شعورهم بالعجز عن مساعدة أولئك المهاجرين، فلم تظهر من بينهم أنجيلا ميركل جديدة بعد تدهور السلطة الأخلاقية للسياسيين، بنفس المستوى الذي يعبر عن خشيتهم من صدمة عودة الشعبوية اليمينية المناهضة للمهاجرين، والتي يمكن أن تكون أكثر فتكا بالديمقراطيات الأوروبية من أي موجات هجرة جديدة.

مع ذلك فهؤلاء المهاجرون لا يأتون فارغي الأيدي وفق تعبير عبدالرزاق قرنح، فإذا كان هذا النوبلي الأخير يمثل ثروة أدبية لبريطانيا بلد كرامته، فلماذا لا يمكن النظر إلى هؤلاء اللاجئين بأنهم أشخاص موهوبون ومفعمون بالطاقة.

صحيح أنهم يأتون بدافع الضرورة، لكنهم أيضا يملكون ما يقدمونه لبلدانهم الجديدة، وفق قرنح.

في النهاية أوروبا مرعوبة من جاذبيتها بمجرد الرغبة المتصاعدة لفكرة أن العديد من الناس في العالم يريدون العيش مثل شعوبها. فيما يبقى الحلم العربي معطلا عن تحول تلك الأوطان إلى مصدر استقطاب في هجرة معاكسة من أوروبا إلى الشرق الأوسط وبنفس جاذبية دول الاتحاد الأوروبي اليوم. كم يبدو هذا الأمل فنتازيا من مشرق العالم العربي إلى مغربه ونحن نقرأ ما قاله أحد المهاجرين لوكالة الصحافة الألمانية وهو من بين بضعة آلاف ما زلوا مرابطين على الحدود البولندية "بالتأكيد نحن لا نرغب في الذهاب إلى العراق والبقاء هناك حتى يتم السماح لنا بدخول الاتحاد الأوروبي".

برلمان حسب الطلب في الأردن

شاكر رفايعة
كاتب أردني

ما هذه المصادفة بين بدء البرلمان الأردني انعقاده في دورة مكرّسة لمناقشة إصلاح الحكم والسياسة في المملكة، والإعلان عن صفقة "المياه مقابل الطاقة" مع إسرائيل؟

على الأغلب هي صدفة بحتة ولا يبدو أن للتزامن بين الحدثين غاية مقصودة، لكنها في الجانب الآخر مصادفة محرجة للنظام السياسي بأكمله، وكاشفة أيضا عن الفرق بين الديكورات الجانبية وأجهزة الحكم الفعلي أو ما اصطلح على تسميتها "أعلى المستويات".

قلة قليلة في الأردن لم تتفاجأ بخبر الصفقة القائمة على إنتاج 600 ميغاوات من الطاقة المتجددة في المملكة لصالح إسرائيل مقابل مئتي مليون متر مكعب من المياه سنويا، في اتفاق لا سابق له من حيث الأهمية الاستراتيجية منذ توقيع معاهدة وادي عربة في 1994.

وزراء ليس لديهم علم بالاتفاق. الناطق الرسمي باسم الحكومة ينفي الخبر قطعيا في أول النهار ويؤكده وزير آخر بعد ساعات. وزير المياه يقول إن "إعلان النوايا" الموقع على هامش معرض إكسبو دبي تم التفاوض عليه خلال 24 ساعة فقط، انطلاقا من فكرة إماراتية.

ظلت وسائل الإعلام الأردنية، على مدى أسبوع، تنشر أخبار الاتفاق نقلا عن صحف ومواقع أجنبية وإسرائيلية، والحكومة تلوذ بالصمت. وهو بطبيعة الحال خيارها الوحيد والمعهود الذي ارتضته لنفسها حين غابت أو غُيبت عن مهامها الرئيسية، ومنها صفقة بهذا الحجم والأهمية.

يمكن تلخيص المشهد في عيون "أعلى المستويات" في المملكة على النحو التالي: حجم الصفقة وهدفها وتأثيراتها أكبر من الحكومة وأكثر حساسية من أن تُطرح على الرأي العام قبل توقيعها منعا لأي تشويش مسبق لا داعي له مع ما يرافقه من الاتهامات بالتطبيع والتخوين والارتهان لدولة الاحتلال.

أما وقد تم الإعلان عن الصفقة باعتبارها اتفاقا بين حكومتين، فلا بد من مناداة البرلمان الآن ليتولى دوره الدستوري في الرقابة على أداء الحكومة واتخاذ زمام المبادرة للفصل في مدى حاجة البلد إلى هكذا اتفاق.

لا ينبغي أن يكون هذا النداء مثيرا للسخرية أو الاستغراب أو محركا لصناعة الضحك، رغم تجارب الأردنيين في العقود الأخيرة مع برلماناتهم التي أخفقت في أن تمثل نفسها كركن أساسي في منظومة الحكم واستمرأت التبعية التامة للسلطة التنفيذية.

لكن المستقبل السياسي للأردن بين يدي مجلس النواب الآن.

حجم الصفقة وهدفها وتأثيراتها أكبر من الحكومة وأكثر حساسية من أن تُطرح على الرأي العام قبل توقيعها منعا لأي تشويش مسبق مع ما يرافقه من الاتهامات بالتطبيع والتخوين والارتهان لدولة الاحتلال

وإذا كان المجلس لا يرضى فعلا بمرتبة الديكور، وفي أسوأ الأحوال لا يستطيع التدخل مباشرة عبر استخدام صلاحياته في الرقابة على الحكومة، فلا يزال لديه أيضا هامش معقول للتحرك ضد الصفقة التي قوبلت بغضب واسع ومتوقع لدى الرأي العام الرافض بشدة للتطبيع مع إسرائيل التي ظلت علاقاتها باردة مع الأردن لأكثر من عشر سنوات قبل أن تسعى المملكة وخلفاء نتنياهو إلى إنعاشها في دبي بالكهرباء والماء.

إلى جانب الاستفادة من زخم الرفض الشعبي، في وسع مجلس النواب أيضا إذا لم يتعرض لـ"تدخل خارجي"، أن يفتح نقاشا عاما حول الوضع المائي الحرج للبلد والحلول بعيدة الأمد والخيارات الممكنة.

كما يستطيع البرلمان كجسم دستوري، وليس نوابا استعراضيين متفرقين، أن يجري دراسات ويستمع لخبراء ومختصين في المجال. ومن ذلك التصريح اللافت الذي أطلقه وزير سابق للمياه وأيّده أستاذ جامعي في بحوث المياه، بأن المخزون الجوفي للأردن يكفي لـ500 عام إذا توفرت الاستثمارات المناسبة.

سبق وأن أخفقت الحكومات المتعاقبة في اختبارات الثقة مع الناس، منذ تخلت عن مسؤولياتها في الولاية العامة على البلد وجعلت من وزرائها محض موظفين منفذين لإرادة الحكم وليس لهم دور حقيقي في رسم السياسات.

وفي حين تعلم الحكومات أيضا أن أعمارها قصيرة وتحت رحمة التغييرات والتعديلات الوزارية، فهي تشعر بأن مسألة الثقة الشعبية لا تعنيها كثيرا مثلما لا يعرف الأردنيون الأسباب التي أدت إلى ذهاب حكومة ومجيء أخرى خلال سنة أو سنتين.

أما مجلس النواب، ورغم ضعفه التمثيلي، فهو أمام خيارين: النهوض بالحدّ الأدنى من مسؤولياته عن رسم مستقبل الحكم وتشريعاته أو أن يلعب دورا هامشيا بروتوكوليا. وينسحب ذلك أيضا على صفقة المياه مقابل الطاقة مع إسرائيل.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk